

لنا عن كل تحوّل في عصرنا الحاضر، لسبب طبيعي في رأيهم، وهو أنها هي التي تحمل في أوانيها كل هذا التراث، فإذا تحطمت هذه الأواني تحطم التراث كله، ولم يعد هناك جدال ولا خلاف في أنه لا يتصل بعصرنا ولا بحياتنا الفكرية، إذ بطلت الفصحى وحلّت محلها العامية قوأم حياتنا اليومية.

٢

ونحن نناقش هذه الحجج حجة حجة، وأول حجة يرفعها خصوم التراث في مواجهته حجة العلم الغربي الذي لا يمكن لأمة عصرية أن تنتفع بحياتها إلا إذا تزوّدت منه أزوآداً وفيرة، بل لا بدّ أن تكبّ عليه إكبأباً وتنقضّ عليه انقضاضاً، وتتقنه فهماً ودرسا، وتمارسه تجربة واختباراً. وكل ذلك لا يمارى فيه أنصار التراث إنما يمارون في أن الخصوم لا يتوقفون عند ذلك، بل يندفعون منه في ثورة غاضبة إلى رفض فروع العلم العربي جميعها بكل ما يطوى فيها من علوم الشريعة وعلوم العربية. ولا تناقض ولا تضاد بين هذه العلوم الأخيرة والعلم الغربي، لسبب واضح، وهو أن العلم الغربي ساحته الطبيعة وقوانينها وما يتصل بالضوء والكهرباء والصوت والذرة، وكل ذلك لا صلة له بعلوم العربية، بل إن اتقان هذه العلوم من شأنه أن يميّن الناطقين بالضاد من تذليلها لحمل العلم الغربي في صور دقيقة منتهى الدقة. وأيضاً لا تناقض ولا تضاد بين العلم الغربي وعلوم الشريعة؛ لأنه يتناول الطبيعة وقوانينها، بينما تتناول تلك العلوم القيم الروحية والعقلية والاجتماعية والإنسانية، وما من شك في أن تمثل هذه القيم من شأنه أن يجعل العالم بقوانين الطبيعة مثالياً في خلقه متفانياً في عمله على خدمة أمته.

وكلّنا نعرف كيف دعا الإسلام في قوّة إلى العلم والتعلّم، فقد كانت أوّل آيات نزلت على الرسول صلى الله عليه وسلم منه: (اقرأ باسم ربك الذي خلق، خلق الإنسان من علق، اقرأ وربك الأكرم، الذي علّم بالقلم). والتعليم بالقلم مطلق غير مقيد بضرب خاص من ضروب العلم، فهو يشمل علوم الطبيعة، كما يشمل علوم الشريعة، يشمل كل علم نظري يدرك بالعقل والاستنباط، وكل علم عملي